

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ 23 / 5 / 1442 هـ

عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ أَوَّلَى الْحَدِيثَ عَنْ بُغَاةِ الْفِتْنَةِ وَدُعَاتِهَا، وَالْمُعَوِّقِينَ لِمَسِيرَةِ الْخَيْرِ وَالْإِصْلَاحِ عِنَايَةً بِالْعَةِ الْأَهْمِيَّةِ؛ وَذَلِكَ بَيَانًا لِحَظَرِ هَؤُلَاءِ عَلَى الدِّينِ وَالْوَطَنِ، وَعَلَى مَسِيرَةِ الْإِصْلَاحِ، قَالَ اللَّهُ ﷻ نَاهِيًا عَنِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾، وَبَيَّنَّ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ وَالْمُفْسِدِينَ، فَقَالَ: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾، وَقَالَ ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾، وَبَيَّنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ الْفَسَادَ مِنْ أَسْبَابِ الْفَقْرِ، أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيُّ، وَحَسَنَةُ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْغَزْوُ غَزْوَانٍ: فَأَمَّا مَنْ ابْتَغَى وَجْهَ اللَّهِ، وَأَطَاعَ الْإِمَامَ، وَأَنْفَقَ الْكَرِيمَةَ، وَيَأْسَرَ الشَّرِيكَ، وَاجْتَنَبَ الْفَسَادَ، فَإِنَّ نَوْمَهُ وَنُبْهَهُ أَجْرٌ كُلُّهُ، وَأَمَّا مَنْ غَزَا فَخْرًا وَرِيَاءً وَسُمْعَةً، وَعَصَى الْإِمَامَ، وَأَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَرْجِعْ بِالْكَفَافِ».

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ ﷻ الرُّسُلَ ﷺ لِإِصْلَاحِ مَا أَفْسَدَهُ النَّاسُ. فَهَذَا نَبِيُّ اللَّهِ صَالِحٌ ﷺ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿فَاذْكُرُوا عَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، وَهَذَا نَبِيُّ اللَّهِ شُعَيْبٌ ﷺ الَّذِي عَلِمَ فَسَادَ قَوْمِهِ وَغَشَّهُمْ فِي الْمَكْيَالِ وَظَلَمَهُمُ النَّاسُ، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، وَهَذَا نَبِيُّ اللَّهِ لُوطٌ ﷺ قَالَ: ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾، وَهَذَا مُوسَى كَلِيمُ الرَّحْمَنِ يُخَاطِبُ أَخَاهُ هَارُونَ ﷺ قَائِلًا لَهُ: ﴿أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾، وَهَآ هُمْ صَالِحُو الْبَشَرِ يُخَاطِبُونَ قَارُونَ قَائِلِينَ لَهُ: ﴿وَأَبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

عِبَادَ اللَّهِ: لَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ ﷻ صِفَاتِ الْبُغَاةِ وَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ لِنَجْتَنِبَهَا، وَمِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ:

الْأُولَى: الْكَذِبُ وَالتَّدْلِيسُ، وَادِّعَاءُ الصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ، قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ

﴿١٦﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ ﴿١٨﴾.

الثَّانِيَةُ: الْإِرْجَافُ فِي الْأَوْطَانِ، وَنَشْرُ الشَّائِعَاتِ، وَبَثُّ الْفِتْنَةِ وَالْوَهْنِ بَيْنَ النَّاسِ، وَذَلِكَ عَنْ طَرِيقِ وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ الْمَوْجَّهَةِ الْعَمِيلَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَّيْنٌ لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٩﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢٠﴾. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَفْسِيرِهِ»: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أَيُّ: لِأَنَّهُمْ جُبْنَاءُ مَخْذُولُونَ، ﴿وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ﴾ أَيُّ: وَلَا أَسْرَعُوا السَّيْرَ وَالْمَشْيَ بَيْنَكُمْ بِالنَّمِيمَةِ وَالْبَغْضَاءِ وَالْفِتْنَةِ، ﴿وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ﴾ أَيُّ: مُطِيعُونَ لَهُمْ، وَمُسْتَحْسِنُونَ لِحَدِيثِهِمْ وَكَلَامِهِمْ، يَسْتَنْصِحُونَهُمْ وَإِنْ كَانُوا لَا يَعْلَمُونَ حَالَهُمْ، فَيُؤَدِّي هَذَا إِلَى وَقُوعِ شَرِّ بَيْنِ الْمُؤْمِنِينَ، وَفَسَادٍ كَبِيرٍ.

الثَّالِثَةُ: التَّحَالُفُ مَعَ أَعْدَاءِ الْوَطَنِ، وَالْفَرَحُ إِذَا أَلَمَ بِهِ شَرٌّ، أَوْ تَفَشَّى فِيهِ مَرَضٌ، قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ خَشِيَ أَنْ تُصِيبَنَا دَآيِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَدِيمِينَ﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لَّيَبْطِئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ ﴿٢١﴾ وَلَيْنَ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِيتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾، وَقَالَ ﷻ: ﴿إِنْ تَمَسَّسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصَبِّكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ ﴿٢٢﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ مُوَاجَهَةَ الْفَسَادِ أَحَدُ أَهَمِّ دَعَائِمِ الْحُكْمِ الرَّشِيدِ؛ فَالْمُفْسِدُونَ، وَالْبُغَاةُ، وَالْمُعَوِّقُونَ لِمَسِيرَةِ الْخَيْرِ وَالْإِصْلَاحِ مَعَاوِلُ هَدْمٍ لِلْمُجْتَمَعِ، وَهُمْ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ؛ فَلَا بُدَّ مِنَ التَّصَدِّي لَهُمْ بِكُلِّ حَزْمٍ وَقُوَّةٍ، أَخْرَجَ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَالْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ»، وَحَسَنَةُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ؟ الْمَشَاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ، الْمُفْسِدُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ، الْبَاغُونَ لِلْبِرَاءِ الْعَنْتَ».

لَقَدْ شَرَعَ اللَّهُ ﷻ لِلْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ عُقُوبَةً عَظِيمَةً، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۝٣٥﴾، وَقَالَ ﷻ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٣٦﴾. قَالَ الْعَلَامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَفْسِيرِهِ»: الْمَشْهُورُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ فِي أَحْكَامِ قُطَاعِ الطَّرِيقِ، الَّذِينَ يَعْرِضُونَ لِلنَّاسِ فِي الْقُرَى وَالْبَوَادِي، فَيَغْصِبُونَهُمْ أَمْوَالَهُمْ، وَيَقْتُلُونَهُمْ، وَيُخَيِّفُونَهُمْ، فَيَمْتَنِعُ النَّاسُ مِنْ سُلُوكِ الطَّرِيقِ الَّتِي هُمْ بِهَا، فَتَنْقَطِعُ بِذَلِكَ. فَأَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّ جَزَاءَهُمْ وَنَكَالَهُمْ - عِنْدَ إِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَيْهِمْ - أَنْ يُفْعَلَ بِهِمْ وَاحِدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ.

وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ: هَلْ ذَلِكَ عَلَى التَّخْيِيرِ، وَأَنَّ كُلَّ قَاطِعِ طَرِيقٍ يَفْعَلُ بِهِ الْإِمَامُ أَوْ نَائِبُهُ مَا رَأَاهُ الْمَصْلَحَةَ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الْمَذْكُورَةِ؟ وَهَذَا ظَاهِرُ اللَّفْظِ، أَوْ أَنَّ عُقُوبَتَهُمْ تَكُونُ بِحَسَبِ جَرَائِمِهِمْ، فَكُلُّ جَرِيمَةٍ لَهَا قِسْطٌ يُقَابَلُهَا، كَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْآيَةُ بِحِكْمَتِهَا وَمُوَافَقَتِهَا لِحِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُمْ إِنْ قَتَلُوا وَأَخَذُوا مَالًا تَحْتَمَّ قَتْلُهُمْ وَصَلْبُهُمْ، حَتَّى يَشْتَهَرُوا وَيَخْتَرُوا وَيَرْتَدَّعَ غَيْرُهُمْ، وَإِنْ قَتَلُوا وَلَمْ يَأْخُذُوا مَالًا تَحْتَمَّ قَتْلُهُمْ فَقَطْ، وَإِنْ أَخَذُوا مَالًا وَلَمْ يَقْتُلُوا تَحْتَمَّ أَنْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافِ، الْيَدِ الْيُمْنَى وَالرَّجُلَ الْيُسْرَى، وَإِنْ أَخَافُوا النَّاسَ وَلَمْ يَقْتُلُوا، وَلَا أَخَذُوا مَالًا نُفُوا مِنَ الْأَرْضِ، فَلَا يُتْرَكُونَ يَأْوُونَ فِي بَلَدٍ حَتَّى تَظْهَرَ تَوْبَتُهُمْ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَكَثِيرٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ، عَلَى اخْتِلَافٍ فِي بَعْضِ التَّفَاصِيلِ.

﴿ذَلِكَ﴾ النَّكَالُ ﴿لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أَيُّ: فَضِيحَةٌ وَعَارٌ ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فَدَلَّ هَذَا أَنَّ قُطْعَ الطَّرِيقِ مِنْ أَعْظَمِ الذُّنُوبِ، مُوجِبٌ لِفَضِيحَةِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ، وَأَنَّ فَاعِلَهُ مُحَارِبٌ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ. وَإِذَا كَانَ هَذَا شَأْنٌ عَظِيمٌ هَذِهِ الْجَرِيمَةُ، عَلِمَ أَنَّ تَطْهِيرَ الْأَرْضِ مِنَ الْمُفْسِدِينَ، وَتَأْمِينَ السَّبِيلِ وَالطَّرِيقِ عَنِ الْقَتْلِ، وَأَخْذِ الْأَمْوَالِ، وَإِخَافَةِ النَّاسِ، مِنْ أَعْظَمِ الْحَسَنَاتِ وَأَجَلِ الطَّاعَاتِ، وَأَنَّهُ إِصْلَاحٌ فِي الْأَرْضِ، كَمَا أَنَّ ضِدَّهُ إِفْسَادٌ فِي الْأَرْضِ. اهـ

عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ لانتشار الفسادِ أسبابًا، ومنها:

الْأَوَّلُ: الذُّنُوبُ وَالْمَعَاصِي: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ ﴿٣٠﴾.

الثَّانِي: عَدَمُ الْأَخْذِ عَلَى أَيْدِي الْمُفْسِدِينَ: قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ ﴿١١٦﴾. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَفْسِيرِهِ»: يَقُولُ تَعَالَى: فَهَلَّا وُجِدَ مِنَ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ، يَنْهَوْنَ عَمَّا كَانَ يَقَعُ بَيْنَهُمْ مِنَ الشُّرُورِ وَالْمُنْكَرَاتِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَيُّ: قَدْ وَجِدَ مِنْهُمْ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ قَلِيلٌ، لَمْ يَكُونُوا كَثِيرًا، وَهُمْ الَّذِينَ أَنْجَاهُمُ اللَّهُ عِنْدَ حُلُولِ غَيْرِهِ، وَفَجَاءَ نَقْمُهُ؛ وَلِهَذَا أَمَرَ تَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ الشَّرِيفَةَ أَنْ يَكُونَ فِيهَا مَنْ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿١١٤﴾. وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ»؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أَيُّ: اسْتَمَرُّوا عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْمَعَاصِي وَالْمُنْكَرَاتِ، وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى إِنْكَارِ أُولَئِكَ، حَتَّى فَجَّاهُمُ الْعَذَابُ، ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾. اهـ